

تلقي الفيلم الوثائقي في العالم العربي

الدكتور الحبيب ناصري

تقديم

الفيلم الوثائقي (1)، مكون ثقافي وفني وتربوي وجمالي، به، من الممكن، أن نراه في عالمنا العربي، على تطوير ذوقنا، والسموبه، وجعله يفتح على الأسئلة الكبرى المحددة لإشكالياته الأساسية والجوهرية، ثقافيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وروحيا (2)، في زمن عولمة مخيفة ومرعبة (3)، بل في زمن يسير عالمنا نحو ما أصبح يسمى بعولمة العولمة (4)، على الرغم مما تنهض عليه هذه العولمة، من 'تدفقات' معلوماتية وسمعية وبصرية، متعددة ومكسرة للعديد من الحواجز بمفهومها التقليدي. ضمن هذا السياق، تتولد الحاجة إلى الفيلم الوثائقي (5)، في عالمنا العربي، الذي يمر اليوم من منعطف تاريخي، سيلعب فيه الفيلم الوثائقي دورا هاما، في الكشف عن طبيعة هذه الذات العربية وعلاقتها البسيطة والمركبة، مع ذاتها والآخر ككل. في ضوء هذا المعطى، نتساءل عن طبيعة تلقي العربي، لهذا المكون السمعي البصري، والثقافي، والفني، والجمالي، في ظل وضعية سوسيوثقافية تتميز بالعديد من المعالم التي كشفت عنها مجموعة من الدراسات والبحوث (6). إنه التساؤل الذي سنعمقه من خلال مجموعة من المحاور وهي كالتالي.

- ما موقع الفيلم الوثائقي في سياق إعلامه العربي؟، وكيف يتلقى المتفرج العربي العام، هذه المادة السمعية البصرية الثقافية والاجتماعية؟ وما موقع الفيلم الوثائقي في كتابتنا النقدية العربية؟ وما درجة اهتمام بحثنا العلمي العربي بهذا الخطاب الفيلمي؟ إنها أسئلة جوهرية، من خلالها من الممكن، أن نمسك ببعض العناصر التي من شأنها توضيح كيفية تلقي العربي لهذا الجنس التعبيري والفني والثقافي الذي به وضعت السينما كفن سابع، أولى خطواتها (7) بل به تلقى العالم أولى الصور المتحركة التي أبهرت الجميع، وكانت بالفعل أهم و/أو أخطر ما اكتشف الإنسان، مما جعل عصره يسمى بالفعل عصر الصورة (8)، ومن ثم الممسك بأسرارها هو ممسك بجزء مهم من أسرار هذا العالم.

العربي والفيلم الوثائقي

تشكل ثقافة الصورة بمفهومها الأيقوني العام الحديث، مجالا جنينيا في البحث والاهتمام داخل منظومتنا العربية التربوية والعلمية والثقافية، وذلك راجع الى طبيعة العلاقة الرابطة بين العربي والصورة بمفهومها الأيقوني وليس البلاغي، كعلاقة استهلاكية في الغالب الأعم، مما جعل صورته الثقافية 'النمطية' تصنع من طرف الغير، دون نفي أن بعض الأعمال العربية، بدأت تخلخل هذا التصور، في أفق الانخراط في رسم صورة حقيقية عن طبيعة هذا العربي ككل.

قليلة هي الدراسات والبحوث، المبنية على روح المساءلة العلمية، التي فككت سؤال تلقي العربي لثقافة الصورة بشكل عام، وثقافة الفيلم الوثائقي بشكل خاص، مما يجعلنا نتمن، هذه المبادرة التي تقوم بها إدارة الجزيرة الوثائقية، في جمع هذه الدراسات والمقالات العربية، ونشرها وتوزيعها داخل وخارج عالمنا العربي، مما سيخلق تراكما كليا وكيفيا، من شأنه المساعدة على تفكيك هذه العلاقة الموجودة بين العربي وكيفية تلقيه لمكون ثقافي وفني وجمالي، في زمن العولمة، ونقصد الفيلم الوثائقي (9)، كجنس، تعبيرية سمعي بصري، لا زال يقاوم من أجل نزع هويته وشرعيته المهنية في العديد من الأقطار العربية.

الفيلم الوثائقي في سياق وسائل الإعلام العربية.

إن الحديث عن اهتمام وسائل الإعلام العربية، بالفيلم الوثائقي، حديث يجرنا إلى علاقة هذه الوسائل، بثقافة الصورة ككل، علاقة لا يمكن فهمها إلا في ضوء علاقة التصور الثقافي الرسمي العام السائد، خصوصا في حقب تاريخية وسياسية عربية، لاسيما وأن طبيعة التمثيلات السائدة عن السينما، ككل، والفيلم الوثائقي على وجه الخصوص، يدخل في سياق 'الترفيه'، وليس في خانة تطوير الذوق العام نحو ما هو أفضل وأكثر انفتاحا على العالم.

لمعرفة طبيعة هذه التمثيلات السائدة، دون نفي لوجود بعض الاستثناءات، يكفي تتبع ما يكتب في الصحافة العربية وكيفية ترتيبها للمواد الثقافية بشكل عام والفيلمية بشكل خاص، حيث تحتل الصفحات الأخيرة وبشكل كمي يضعف، بل ينعدم أحيانا، لترك المكان لمادة إخبارية، قد تتناقض أحيانا مع روح ما ينشر في هذه الصفحة الثقافية، لكي تبقى السياسة، المكون المهتم به بشكل ملحوظ. إن ظهور التلفزيون في عالمنا العربي، ظهور تم 'تسييسه'، منذ البداية، مع التأكيد، على أن هذا التسييس، قد 'خفت'، إلى حد ما، لغته خصوصا في بعض البلدان العربية، التي سمحت بتحرير المشهد السمعي البصري، وهو ما أعطى الفرصة لتحرر بعض الأقلام والبرامج والأفلام الوثائقية والروائية، وتوسيع مساحات المهرجانات المختصة الخ، مما سمح بإطلاقات فنية وثقافية عربية، تعمقت بشكل ملحوظ، مع ازدهار ما يسمى بالربيع العربي، حيث لعب فيه جسد البوعزيزي وعربته، دورا هاما، أسقط من خلاله العديد من الأقنعة العربية السياسية.

حديثنا هذا، وبهذا الشكل، هو من أجل أن نؤطر ضمنه، كيفية تلقي هذه الوسائل الإعلامية العربية، لثقافة الصورة، بشكل عام. فإذا كانت هذه الوسائل، بين الفينة والأخرى، تقدم مواد إخبارية معلوماتية، عن بعض الأفلام الروائية، فهي في المقابل، كانت تسائر تهميش الفيلم الوثائقي، في ظل تمثل سائد لديها حول هذا الشكل التعبيري، ومراده أنه نوع ثقافي 'نخبوي'، غير مستقطب لمتلق متعدد، مما جعل التصور السائد في العديد من وسائل الإعلام العربية، كالتلفزيون مثلا، مرتبط ببرمجة كمية قليلة للفيلم الوثائقي، وهي برمجة، يفاد منها، مجرد سد فراغ زمني إعلامي، وقد ولد هذا، نوعا من النظرة 'الدونية' للفيلم الوثائقي، مما جعل الاشتغال عليه يدخل في باب المبادرات الأولى.

لكن، وفي ظل بعض التحولات الآتية من ربح العولمة، كبعد ليبرالي (10)، المحولة لهذا العالم، إلى فضاء صغير، حيث الفضائيات الأجنبية، كانت ولا تزال قبلة مفضلة للبعض، تم الانتباه إلى مكانة الفيلم الوثائقي، وما تولده من كتابات ومناقشات ومهرجانات واستثمارات الخ، بل تم التأكد من ولادة قنوات متخصصة في هذا اللون التعبيري والفني والثقافي والجمالي، مما جعل العربي، هنا، عبارة عن مادة فيلمية وثائقية، مادة نمطية تضليلية، في الغالب الأعم، إنها الصورة التي تقدم عنا كعرب في معظم هذه القنوات. في هذا السياق، بدأت بعض الشبكات الإعلامية العربية، تفتح على الفيلم الوثائقي، مما سمح، وفي ظل الحاجة الثقافية والسياسية العربية لهذا الشكل التعبيري، من توسيع نسبة الاهتمام من خلال إحداث بعض القنوات القليلة والمتخصصة في هذا المجال، وهو ما ساهم في تطوير الحاجة إلى الفيلم الوثائقي، وبداية إنتاجه ولو لفائدة هذه القنوات العربية.

من الممكن الجزم أيضا، أن ربيعنا العربي، أعطى أيضا شحنة قوية، لكتابة وإخراج أعمال فيلمية وثائقية عربية مهمة، مما ولد الرغبة، لدى بعض وسائل الإعلام العربية، كالتلفزيون والصحافة المكتوبة وبعض المواقع الإلكترونية المتخصصة، في التعاطي مع الفيلم الوثائقي، الذي بدأ نسبيا، يفرض مدلوله لدى بعض الفئات من مجتمعاتنا العربية، ولو أنه اهتمام، يقدم من سياقات إخبارية معلوماتية.

الفيلم الوثائقي في سياق الفرجة العربية العامة

لا زال الفيلم الوثائقي بشكل عام، مقارنة مع بعض الأشكال الفرجوية السمعية البصرية، لم يجد مكانته الكبرى، وهو ما يفرض التفكير في العديد من الإجراءات التربوية والثقافية والإعلامية الخ، لأنه وكما قلنا في البداية، إن هذا الشكل السمعي البصري الثقافي، من الممكن الرهان عليه لتطوير قدرات المواطن العربي، سواء على مستوى ذوقه أو مخياله، أو معرفته لذاته وللآخر، والكون ككل. نقول هذا الكلام ونحن نعي، الغلاف الزمني الذي يستهلكه العربي أمام التلفزيون، بالمقارنة مع غيره. في ظل هذا السياق، نسجل أن بعض القنوات العربية المتخصصة في ثقافة الفرجة الوثائقية، وكذا بعض القنوات الأجنبية المهتمة بنفس المادة، بدأت نسبياً تستقطب مجموعة مختلفة من الفئات العربية، لمشاهدة ما تقدمه هذه القنوات من أفلام وثائقية عربية وأجنبية مختلفة الموضوعات، وهو ما سجلناه من خلال تتبعنا لطبيعة ما يتلقاه رواد المقاهي، على سبيل التمثيل لا الحصر.

إن تلقي العربي لفيلمه الوثائقي، ولغيره، يفرض ضرورة تطوير المعايير الفرجوية لدى المتلقي العربي، الذي تتحكم فيها مجموعة من الأنماط (الفيلم الوثائقي الحيواني كمثال)، التي صنعتها بشكل قصدي وغير قصدي، سياسات سمعية بصرية محددة، ناهيك عن وضعية العربي التربوية والثقافية والتي هي في المجمل، وليدة فعل سياسي، يرتب هذه الوضعية ضمن مؤخرة اهتماماته، مما جعله يفر بأحلامه ليمططها في فرجته السينمائية الهندية والهوليودية ونماذج فيليمية عربية محددة، طغت فيها فرجة اجتماعية مصرية وغيرها، معيدة لما ينتجه الواقع بشكل أو بآخر في كثير من الحالات، مما جعل العربي، في فرجته العامة، مشدوداً دوماً إلى ما هو اجتماعي، أو عاطفي، أو حربي عسكري (11)... الخ، في غياب ملحوظ لتدني الفرجة كلما تعلق الأمر بمواد فنية وثقافية تتطلب نوعاً من المرجعيات النقدية والتحليلية والذوقية الجمالية والإنسانية (12).

الفيلم الوثائقي في سياق النقد السينمائي

المتابعة النقدية في أي عمل إبداعي، تشكل علامة على الوعي بقيمة ملاحظة وفهم وتحليل وتركيب وتأويل عمل فني ما، ووعي من الممكن أن يساهم في تطوير المنتج الفني في بلادنا العربية وجعله أكثر فنية وإبداعية ومهنية، لكن السؤال الأكثر عمقا، يمكن طرحه على الشكل التالي. ما درجة اهتمام وتلقي الناقد العربي للفيلم الوثائقي؟.

قليلة هي المقالات والدراسات والبحوث، التي تنجز حول الفيلم الروائي، وشبه منعدمة هي تلك المرتبطة بالفيلم الوثائقي، وهذا راجع إلى العديد من العوامل المرهونة بطبيعة التأليف وسياسة النشر والتوزيع في عالمنا العربي المرتب في رتب جد متدنية على مستوى الكتاب وطبيعة ما ينشر ويترجم... الخ.

إن سؤال النقد الفيلمي في وطننا العربي، لا زال أيضاً في العديد من جوانبه، وعلى الرغم من قلته القليلة جداً، بالمقارنة مع نقد الشعر والرواية والمسرح.. الخ، يلامس مكونات مضمونية، أكثر من المكونات الشكلية المحيلة بشكل أو بآخر على سؤال المحتوى. سؤال المضمون الذي يرهن ما يكتب في وطننا العربي، سؤال حدثي وقائعي، أي أنه إجابة ضمنية، عن سؤال ضمني، مفاده، ماذا قال الفيلم؟، وليس كيف قال الفيلم قوله؟.

إن ملامسة الناقد العربي، لسؤال ال"ماذا"، يحيلنا مباشرة على طبيعة الممارسة النقدية/الثقافية العربية ككل، ممارسة مرتبطة بالبعد الخبري، كبعد مضموني، مما جعل هذا المعيار به "يقاس" العديد من الأعمال

الفنية والإبداعية والثقافية. إنها المرجعية/الرؤية "الواقعية" لما يجري من حولنا، وبالتالي تصبح هنا عملية التلقي، بمفهومها النقدي/المنهجي/العلمي، عملية تشوبها طبيعة الرؤية السائدة والمتحكم فيها من طرف ما يمكن تسميته بمنظومة القيم السائدة، هنا، يأتي دور خلخلة هذا الجاهز والبحث عما هو متجدد، السائر وحاجيات المتلقي في الحاضر والمستقبل، مما يعطي للعمل المتلقي ذلك الدور البارز، في تطوير قدرات المتلقي، وجعله كائنا له قيمته الرمزية، في تطوير ما يقدم إليه.

سؤال الفيلم الوثائقي، إذن، وفي ظل تلقيه، وفق سؤال الـ "الكيف"، يحيلنا على مكونات متعددة، بدءاً من كيفية طرح الفكرة، مروراً بالعديد من العناصر الفنية والشكلية والجمالية، كالموسيقى والأمكنة/الفضاءات التي تصبح بدورها بمثابة شخصيات لها وظيفتها الحكائية (13)، والشئ، نفسه يمكن قوله حول بقية العناصر الأخرى، مثل طبيعة الراوي وموقعه في الحكى، أي علاقته بما يقدم، وكل العناصر المؤدية إلى الإمساك بسؤال الكيف. إن طبيعة هذا التلقي وفق هذه الرؤية التي تستمد بعض تجلياتها، مما تعيشه العلوم الإنسانية من تطور مفاهيمي ومنهجي، سيساهم بكل تأكيد في تطوير فعل التلقي لدى المشاهد العربي، وهنا سيكون دور النقد، بمثابة تلك الأداة المطورة والمخلطة لمعايير السائد، المرسخ لما يخدم غير "الحقيقة". سؤال المقاربة المعتمد على المكونات الداخلية للفيلم الوثائقي، دون التقليل طبعاً من سؤال المضمون، سؤال يفعل فعله في المتلقي، ويجعله يطور رؤيته لذاته وللآخر وللعالم، ويجعله فاعلاً في منظومة القيم الثقافية والجمالية 14 التي هي في نهاية المطاف قيم إنسانية قابلة للتطوير والتحديث وفق سؤال الحاجة.

الفيلم الوثائقي في سياق البحث العلمي العربي

تشكل الفنون مدخلاً نوعياً، لتطوير فعل التلقي لدى جميع أصناف البشر وفي كل المجتمعات الإنسانية، مما يستدعي تطوير كل الأغلفة المالية المخصصة للبحث العلمي، لاسيما في وطننا العربي، حيث لا زال الرغيف بمفهومه 'البطني'، وليس الثقافي، يؤسس لمعظم البرامج السياسية العربية، مما يجعلنا نراهن على تلك السياسات العربية الجديدة، المؤمنة بقوة الاستثمار في البحث العلمي، إنه رهان آخر من اللازم تطويره وتطويره، وجعله ضمن أولويات برامجنا السياسية، إن أردنا ولوج الحداثة الفكرية والثقافية والعلمية، من أبوابها المشروعة إن نحن أردنا ركوب قطار التنمية البشرية الحقيقية، وليس التنمية اللحظوية المرهونة 'بشهوة' سياسية انتخابوية عابرة.

في هذا السياق، نسجل ضعف تطوير قدرات الإنسان العربي في مجال تربيته الثقافي والجمالي والمعرفي... الخ، بل يمكن الجزم هنا، أن الاهتمام بسؤال الثقافة في معظم أوطاننا العربية، يحتل رتبة ضعيفة جداً، دون نفي لبعض المجهودات المبذولة بين الفينة والأخرى، لكنها تبقى محدودة جداً، من هنا نسجل ضعف التكوين والتكوين المستمر في مجالات السمع البصري، بشكل عام، والوثائقي بشكل خاص، طبعاً نستثني هنا أيضاً مجهودات محدودة، يقوم بها البعض في مجالات إعلامية عربية محدودة أيضاً.

إن الاهتمام بثقافة الصورة، أصبح اليوم، ممراً كونياً للمرور إلى أحد أسرار هذا الكون وفهمه وتحليله، مما يفرض ضرورة انفتاح منظومتنا العربية التربوية أيضاً على هذا الشكل التعبيري والفني ككل، سواء في شقه السينمائي الروائي أو الوثائقي أو الفوتوغرافي أو التشكيلي... الخ، مما يفرض ضرورة تطوير البحث العلمي التربوي أيضاً، وجعل المتعلم العربي مدركاً لآليات توظيف ثقافة الصورة بشكل عام، وثقافة الصورة الفيلمية الوثائقية بشكل خاص، خصوصاً والفيلم الوثائقي، هو أيضاً، أداة من أدوات التعليم/التعلم والتربية والتكوين، وإدراك ما يجري لدينا ولدى الغير، مما يجعلنا 'نحلم' بضرورة إدماج هذا الشكل الثقافي والمعرفي والفني والجمالي في المنهاج المدرسي والجامعي والتكويني العربي، وهو الإدماج الذي لن يمر إلا عبر بوابة البحث العلمي ككل. مرور من اللازم أن يأخذ بعين الاعتبار، أننا أمام أجيال عربية تشغل بشكل مذهل كل الرقميات والتكنولوجيات الحديثة، طبعاً من موقع التشغيل الاستهلاكي، وإلا فالإنسان العربي أيضاً ملزم بتطوير كل آليات البحث العلمي في كل المجالات ومن موقع بنوي/تربوي، تصبح فيه التكنولوجيا 'العربية' حاضرة بقوة كإبداع (15) في عالم اليوم عوض العيش على حافة الاستهلاك، وعدم

الابتكار والاختراع، خصوصاً والعربي له كل المؤهلات الذهنية التي تجعله يصل هذه المراتب، ودليلي في هذا مكانة العربي اليوم في مجتمعات الغير، وما يقوم به من ريادات علمية وطبية وفنية ورياضية الخ، ويعود هذا إلى كونه يجد لدى الغير، الذي يمتص إمكاناته المتعددة في ظل رؤية منفعية براغماتية مادية محضة، الفضاء المريح للإبداع والابتكار والبحث.

على سبيل التركيب

في ضوء هذه العناصر المستخلصة هنا نسجل جنينية الاهتمام بثقافة الصورة ككل، وثقافة الصورة الفيلمية الوثائقية على وجه الخصوص، مما يجعل تلقي هذه المادة الفيلمية الوثائقية تعترضها مجموعة من الصعاب المعرفية والقيمية والثقافية المستمدة من طبيعة تلقي العربي ككل لثقافة الصورة، والمبنية أساساً على أسس حديثة ووقائعية، رهنّت منذ مدة بسؤال يحيل على ما هو مضموني، دون طرح السؤال العميق المؤدي إلى تطوير الذوق والرؤية الثقافية لدى العربي، أي كيف يقول عمل وثائقي ما يقوله؟ إنه السؤال العميق الذي من الممكن الرهان عليه، من أجل تلقى فيلمي وثائقي وثقافي ككل، منطور ومدرك لقيمة القيم (16) والفعل النقدي المؤدي إلى تطوير رؤية العربي لذاته وعلاقتها بنفسها والآخر والعالم ككل.

لقد حاولنا من خلال ما سبق، تبيان كيفية تلقي العربي لفيلمه الوثائقي ولغيره، من خلال مجموعة من الزوايا، بدءاً بكيفية تلقي الإعلام العربي للفيلم الوثائقي، تساءلنا عن طبيعة علاقة العربي بهذه الفرجة الفيلمية الوثائقية، وطرحنا سؤالاً جوهرياً يتعلّق بكيفية تعامل نقدنا العربي مع هذا الشكل التعبيري السمعي البصري، وقد حاولنا أيضاً وضع هذا المكون في سياق سؤال آخر يتعلّق بالبحث العلمي العربي، كل هذا كان من أجل الإمساك ببعض العناصر المكونة لتلقي الفيلم الوثائقي في عالمنا العربي، وهي عناصر من الممكن أن تساهم في تشخيص هذا التلقي العربي، بغية وضع إستراتيجية ثقافية فنية عربية متكاملة، الغاية منها، العمل على تطوير أساليب التعامل العربي، في أفق جعله يتفاعل مع الفيلم الوثائقي، تفاعلاً فعالاً هادفاً إلى مده بكل الآليات الممكنة، حتى يتمكن من تحقيق إشباعه الفني والثقافي والمعرفي الخ، لأنه المدخل الحقيقي لكل تنمية (17) إنسانية عربية حقيقية.

المراجع

- 1- الفيلم الوثائقي/قضايا وإشكالات، تأليف مجموعة من الباحثين، تنسيق حسن المرزوقي، إعداد قناة الجزيرة الوثائقية، ط1 السنة 2010.
- 2- الدكتور طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف، ص16 وما بعدها، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط2005، 1.
- 3- فكر ونقد، أنظر محور العولمة والمقارنة الثقافية، ص41، وما بعدها، السنة العشرة، ع97، أبريل 2008.
- 4- أنظر مؤلف الدكتور المهدي المنجرة، عولمة العولمة، منشورات الزمن، المغرب، ط2، 2011.
- 5- الدكتور الحبيب نصري، في الحاجة إلى الفيلم الوثائقي، مقال بالقدس العربي بتاريخ 5 أكتوبر 2010.
- 6- أنظر المسألة الثقافية، الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 1994.
- 7- علاء عبد العزيز السيد، الفيلم بين اللغة والنص، ص66 وما بعدها، منشورات وزارة الثقافة، المؤسسة العامة للسينما، دمشق سوريا.
- 8- أنظر، الدكتور شاكر عبد الحميد، عصر الصورة، عالم المعرفة، ع311، يناير 2004.

- 9 - الفلم الوثائقي/مقاربة جدلية، تأليف مجموعة من الباحثين، تنسيق حسن المرزوقي، إعداد قناة الجزيرة الوثائقية، ص145 وما بعدها، ط1، السنة 2011
- 10 - فكر ونقد، أنظر الليبرالية الجديدة والعولمة والثقافة، ص5 وما بعدها، ع94 يناير 2008
- 11 - عبد المعين الموحد، التسويق السينمائي، ص178 وما بعدها، منشورات وزارة الثقافة السورية، المؤسسة العامة، 2009
- 12 - أنظر، إبراهيم العريس، ما وراء الشاشة /سينما الإنسان، ج2 منشورات وزارة الثقافة، المؤسسة العامة، دمشق 2010
- Voir Moumen smihi. Ecrire sur le cinéma. Idées-13
.année 2006 1-ed.clandestines1
- 14 - الدكتور الحبيب نصري، أنظر جماليات الحكى ، فصل الشخصيات، ط1، مطبعة عين أسردون بني ملال المغرب 2004
- 15 - أنظر، الدكتور نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة/مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول، ج1 عالم المعرفة، 369، نونبر، 2009
- 16 - أنظر، الدكتور المهدي المنجرة، قيمة القيم، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط1، 2007
- 17 - الدكتور محمد عابد الجابري، مواقف/التنمية البشرية والخصوصية الثقافية، ص51 وما بعدها، ط1، 2007